الدرس الثامن عشر :

الاعتصام بُسنَّة النبيِّ والراشدين

روى أبو داود والترمذي ، عن العِرباض بن سارية ﷺ قال : وعظنا رسول الله ﷺ ، موعظة وجِلت منها القلوب وذرَفت لها الأعين فقلنا : يا رسول الله ، كأنها موعظة مودِّع ، فأوصنا . فقال : « **أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبدٌ حبشيٌّ ، فإنه مَن يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيراً ، فعليكم بسُنَّتي وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضُّوا عليها بالنواجذ ، وإيَّاكم ومحدثاتِ الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة** »[1].

موعظة بليغة :

يُحدِّثنا العِرباض بن سارية أحد الصحابة رضوان الله عليهم ، أنَّ رسول الله ﷺ ، وعظهم يومًا موعظة بليغة ، وكان يتخوَّلهم بالموعظة مَخَافةَ السآمة عليهم[2]. لقد وجِلت القلوب من تلك الموعظة المُؤثِّرة ، وذرَفت العيون . . . وكان رسول الله ﷺ ، كما روى عنه جابر بن عبد الله ، إذا خطب فذكر الساعة اشتدَّ غضبه ، وعلا صوته ، واحْمَرَّت عيناه ، كأنه مُنذر جيش يقول : صبَّحكم ومسَّاكم [3].

وَجَل القلوب :

لذا وجِلت قلوب الصحابة من تلك الموعظة المؤثِّرة ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ

---

(١) رواه أحمد (١٧١٤٤)، وقال مخرّجوه : صحيح رجاله ثقات ، وأبو داود في السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه في المقدمة (٤٣) .

(٢) عن ابن مسعود قال : كان النبي ﷺ ، يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا . متفق عليه : رواه البخاري في العلم (٦٨) ، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨٢١) ، كما رواه أحمد (٣٥٨١) ، والترمذي في الأدب (٢٨٥٥) .

(٣) رواه مسلم في كتاب الجمعة (٨٦٧) ، وابن ماجه في المقدمة (٤٥) ، عن جابر بن عبد الله .

إِيمَـٰنًا ﴾ (الأنفال:٢) ، ووصف القرآن الكريم فقال : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر:٢٣).

موعظة مودِّع :

سمع الصحابة ما وعظهم الرسول به ، فعرفوا من ثنايا كلامه عليه الصلاة والسلام ، أنه يُودِّعهم ، وكأنَّ الرسول قد أحسَّ بدُنُوِّ أجله ، فأبلغ في الموعظة ، والمُودِّع يستقصي في قوله وفي عمله ما لا يستقصي غيره ، ولهذا كان يوصي عليه السلام ، أصحابه فيقول : « صلِّ صلاةَ مودِّع »[1].

أي اعتبر هذه الصلاة آخر صلاةٍ في عمرك ، تُودِّع بها الدنيا ، ولو عرَف الإنسان أنَّ الصلاة التي يؤدِّيها هي آخر صلاة له ، وختام عبادته في الأرض ، لأتقنها وَجَوَّدها وأقامها واجتهد فيها .

حين أبلغ الرسول ﷺ ، في تلك الموعظة واستقصى فيها ، قالوا : يا رسول الله ، كأنها موعظة مودِّع . . فأوصنا .

أي اذكر لنا وصية جامعة شافية كافية ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد » .

التقوى أم الوصايا :

أوصاهم أولاً بالتقوى ، وهي أمُّ الوصايا . . . وهذه هي الوصية الجامعة المانعة ، وصيَّة الله للأولين والآخرين ، قال عزَّ وجل : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ (النساء:١٣١) .

جاء رجل يسأل أحد العلماء ويقول له : أوصني وأوجز . فقال : عليك بآخر آية من سورة النحل ، وتلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل:١٢٨).

---

(١) رواه أحمد (٢٣٤٩٨) ، وقال مخرّجوه : إسناده ضعيف لضعف علي بن عاصم ، وجهالة عثمان ابن جبيرة ومع جهالته فقد اضطرب في إسناده ، وابن ماجه في الزهد (٤١٧١) ، والطبراني في الكبير (١٥٤/٤) ، عن أبي أيوب الأنصاري ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٢) .

وقد أشار النبي ﷺ يومًا إلى صدره وقال : « التقوى هاهنا » ويشير إلى صدره (ثلاثا)[1]، أي ليست التقوى صُورةً تخدع ، ولا ثوبًا يرقّع ، ولا مسبحة تُعلَّق ، ولا لحيةً تُطال ، ولا عِمامةً تكوَّر ، ولا أي شيء من ذلك ، ما لم يكن لهذا كله أصل في أعماق القلب .

خشية الله عز وجل هي سرُّ التقوى . . وأساسها . . . ولبابها . . . أن يستشعر الإنسان أنَّ الله معه حيثما كان ، في سرِّه ونَجْواه ، في مصبحه ومَمْساه ، في مَرَاحه ومَغْداه ، في خَلْوَته وجلوته ، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد: ٤).

السمع والطاعة للقيادة المؤمنة :

ثم قال عليه الصلاة والسلام : « وعليكم بالسمع والطاعة وإنْ تأمَّر عليكم عبد ».

أوصاهم لدينهم ودنياهم بالتقوى ، ثم أوصاه لجماعتهم بالسمع والطاعة ، بأن يتعلَّموا النظام ، ويتعلَّموا الطاعة للقيادة ، فقد كان العرب قبل الإسلام قبائل شتَّى ، ووجهات متعدِّدة ، كل قبيلة بمثابة دولة بنفسها ، وحكومة مُستقلة عن سواها ، لا تجمعهم رابطة ، ولا يُؤلِّف بينهم نظام ، ولا يقودهم إمام .

فلما جاء الإسلام أراد أن يُفهمهم معنى الجماعة ، معنى الدولة ، معنى الحكومة والأمة ، وأن يعلمهم النظام ، ويعلمهم الطاعة . . . ومن هنا تكرَّرت الأحاديث النبوية تُوصي بالسمع والطاعة . . . فإنه لا يُمكن أن تنجح أمة ذات رسالة في الأرض ، مهمتها أن تُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأن تُؤدِّب الجبابرة ، وأن تُعلِّم الأكاسرة والقياصرة ، وأن تقود الناس إلى عبادة الله ، فلا يتخذ الناس بعضهم بعضًا أربابا من دون الله . .

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤) ، وأحمد (٨٧٢٢) ، عن أبي هريرة .

لا تنجح أمة هذا شأنها حتى تكون لها قيادة ، وحتى يُعرف لهذه القيادة حقَّها ، وحتى تُطاع هذه القيادة بالمعروف ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

ضوابط الطاعة :

جاء في الصحيحين : « إنما الطاعة في المعروف »[1] .

وقال معاذ بن جبل : يا رسول الله ، أرأيتَ إن كان علينا أمراء لا يستنُّون بسُنَّتك ، ولا يأخذون بأمرك ، فما تأمرنا في أمرك؟ فأجاب النبيُّ عليه الصلاة والسلام ، بجواب جامع ، وقال : « لا طاعة لمَن لم يُطعِ الله عز وجل »[2] .

فالنبيُّ عليه الصلاة والسلام ، يأمر بالطاعة ، أي في غير المعصية ، كما جاء في الحديث الصحيح : « حق على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، ما لم يُأمر بمعصية ، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[3] .

ومعنى هذا أنه يجب على الفرد المسلم : أن يطيعَ قيادته فيما أحبَّ وفيما كره ، وإن كان ذلك ضدَّ رغبته ، وضدَّ مصلحته الشخصيَّة ، ما دام ذلك أمرًا بالمعروف .

مثال ذلك : أن يُطالَب بالزكاة ، أو بحقٍّ بعد الزكاة . . . أو حتى إذا طُولب بما فيه إزهاق رُوحه ، كأن يُجنَّد ، أو يُطلب منه التقدُّم إلى ساحة القتال للدفاع عن دينه وعن أرضه الإسلامية . . . فلا بد أن يطيع ، أحبَّ ذلك أو كره . . . ما لم يؤمر بمعصية ، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . . .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في المغازي (٤٣٤٠) ، ومسلم في الإمارة (١٨٤٠) ، كما رواه أحمد (٦٢٢) ، وأبو داود في الجهاد (٢٦٢٥) ، والنسائي في البيعة (٤٢٠٥) ، عن علي .

(٢) رواه أحمد (١٣٢٢٥) ، وقال مخرّجوه : إسناده محتمل للتحسين ، وأبو يعلى (٤٠٤٦) ، عن أنس بن مالك ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد وأبو يعلى وفيه عمرو بن زينب ولم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح (٤٠٦/٥) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٥٢١) .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الأحكام (٧١٤٤) ، ومسلم في الإمارة (١٨٣٩) ، كما رواه أبو داود (٢٦٢٦) ، والترمذي (١٧٠٧) ، كلاهما في الجهاد ، والنسائي في البيعة (٤٢٠٦) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٤) ، عن ابن عمر .

هكذا يُعلم الرسول ﷺ الأمة : أن تُطيع في المعروف ، وإن تأمَّر عليها عبد .

جاء في صحيح البخاري قال : « اسمعوا وأطيعوا ، وإن استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة »[1].

وفي صحيح مسلم : « وإن تأمَّر عليكم عبد يقودكم بكتاب الله »[2]، فالشرط للقائد أن يقود بكتاب الله . . . لا عبرة بلونه ، أسود أو أبيض أو أصفر .

ولا عبرة بجنسه ، عربيًّا كان أو عجميًّا أو زنجيًّا ، أو غير ذلك .

ولا عبرة بطبقته ، من أيِّ الطبقات كان الأغنياء أم الفقراء ، النبلاء أم الفلاحين . وإنما العبرة بمنهجه وبسلوكه .

فإذا كان يقودكُم بكتاب الله فلا بدَّ أن يُطاع . . . وإن كان عبدًا حبشيًّا .

اختلاف الأمة اختلافًا كثيرًا :

ثم قال عليه الصلاة والسلام ، بما آتاه الله من علم النبوة : « إنه مَن يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا » .

وقد كان . . . فكما اختلفت الأُمم من قبلنا ، اختلفت هذه الأمة اختلافًا كثيرًا ، اختلفت على بضع وسبعين فرقة ، كما جاء في حديث آخر : « كلها في النار إلا واحدة »[3].

---

(١) رواه البخاري في الأحكام (٧١٤٢) ، وأحمد (١٢١٢٦) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦٠) ، عن أنس بن مالك .

(٢) رواه مسلم (١٨٣٨) ، وأحمد (١٦٦٤٦) ، والنسائي في البيعة (٤١٩٢) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٦١) ، عن أم الحصين الأحمسية .

(٣) رواه أحمد (١٦٩٧٩) وقال محققوه : إسناده حسن ، عن معاوية بن أبي سفيان ، وانظر : كلامنا عليه في كتابنا : (الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم)، نشر مكتبة وهبة ، القاهرة .

وقد سُئل النبيُّ ﷺ عن هذه الفِرقة الواحدة الناجية من النار ، السالمة من سخط الجبار فقال : « ما أنا عليه وأصحابي »[1].

هي التي اتَّبعت منهج رسول الله ﷺ ، ومنهج أصحابه ، ولم تنحرف يمينًا ولا يسارًا . . . هذه هي الفِرقة الناجية .

قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا » . في العقائد ، والعبادات ، والأقوال ، والأعمال ، والقوانين .

المخرج من هذا الخلاف :

لكن ما المخرج من هذا الخلاف؟ قال : « فعليكم بسُنَّتي وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضُّوا عليها بالنواجذ » .

عرَّفنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، الداء والدواء . . . الخلل والعلاج . . .

سبب الاختلاف وبعض صوره :

سيكون اختلاف كثير ، حينما تختلط الأُمة الإسلامية بغيرها من الأُمم ، وحينما يحتكُّ الإسلام بغيره من الديانات ، وحينما يجاور الفكر الإسلامي غيره من الثقافات والأفكار . . . هناك تشوُّبه الشوائب ، وتدخل عليه الأخلاط من هنا ومن هناك . . . وهذا ما حَدَث في حياة المسلمين بالفعل ، فاختلفوا في أمور كثيرة .

هذا يُكفِّر مَن ارتكب كبيرة ولو مرَّة واحدة ، ويحكم عليه بالخلود في النار أبد الآبدين ، إذا مات ولم يحدث توبة من تلك الكبيرة التي ارتكبها[2]. ومنهم من يقول : هو في منزلة بين المنزلين : بين الإيمان والكفر ، ولكنه مخلد في النار .

---

(١) رواه الترمذي في الإيمان (٢٦٤١) ، وقال : هذا حديث مفسَّر غريب لا نعرفه مثل هذا ، إلا من هذا الوجه ، عن عبد الله بن عمرو ، والطبراني في الأوسط (٢٢/٨) عن أنس بن مالك ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٤٨/١) وقال : رواه الطبراني في الصغير وفيه عبد الله بن سفيان ، قال العقيلي : لا يتابع على حديثه هذا ، وقد ذكره ابن حبان في الثقات ، وذكره العراقي في تخريج الإحياء (١٧٤/٣) وقال : أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وحسَّنه ، ولأبي داود من حديث معاوية ، وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك ، وأسانيدها جياد . ولنا كلام مفصَّل في نقد هذا الحديث ، في ثبوته وفي دلالته ، في كتابنا : (الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم) صـ ٣٤ وما بعدها .

(٢) لنا رسالة لطيفة رددنا فيها على دعاة هذا الفكر بعنوان : (ظاهرة الغلو في التكفير) طبعة مكتبة وهبة القاهرة .

وآخر على عكسه تمامًا ، يقول : لا تضرُّ مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ... فمهما ارتكب من الكبائر فهو لا يستحق النار ، في نظره ، وهكذا .

اختلفت الأمة في أمور كثيرة ، وقامت حرب جدليَّة بين الناس نتيجة الاختلاط باليهود والنصارى والمجوس ، وغيرهم من أتباع المِلل والنِّحل المُختلفة .

الدواء الناجح :

وكان الدواء والحل لكل عُقدة ، والمخرج من كل ظُلمة ، أن يتَّبع الناس وصية رسول الله ﷺ ، فقد قال : «عليكم بسُنَّتي وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضُّوا عليها بالنواجذ»، أي استمسكوا بها بأقصى ما تستطيعون ولا تُفرِّطوا فيها .

إنها سُنة رسول الله ﷺ ، وطريقته ومنهجه ، وما كان عليه في حياته كلها ، من قول وعمل وسلوك ، وعقيدة وفكر ، وعبادة وأخلاق ... هذه هي السنة ... سُنة النبي ﷺ ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده . لأنها مستمدَّة من سنته ، سائرة على هديها .

الخلفاء الراشدون المهديُّون :

وقد أجمع المسلمون على أنهم الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وبعدهم الحسن بن على في فترته القصيرة . وأضاف إليهم كثير من الأئمة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم جميعا .

فأولئك هم الراشدون الهُداة المهديون ، على كل مسلم يريد أن يتجنَّب الخلاف ويتجنَّب الهلاك ، ويتجنَّب الانحراف يمينًا أو يسارًا ؛ أن يتَّبع نهج هؤلاء وطريقتهم .

كتاب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته وعماله في الأقاليم :

(أما بعد : فقد سنَّ رسول الله ﷺ ، وولاة الأمر من بعده سُننًا ، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحدٍ تبديلها ، ولا تغييرها ، ولا النظر في أمر

خالفها . مَن اهتدى بها فهو المُهتدي ، ومَن استنصر بها فهو المنصور ، ومَن تركها واتَّبع غير سبيل المؤمنين ، ولاَّه الله ما تَولَّى وأصْلاه جهنم وساءت مصيرًا ...)[1].

الزائغون عن المحجَّة البيضاء :

هذا فيمَن انحرف عن هدى الله وهدي رسول الله ﷺ ، وهدي أصحابه وخلفائه الراشدين ، الذين وضعوا لنا مسالك نيِّرة ، ومعالم واضحة ، ومناهج قويمة ، على المسلمين أن يتبعوها ، لقد قال عليه الصلاة والسلام : « لقد تركتم على الواضحة ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك »[2].

أي إنه عليه الصلاة والسلام تركنا على المحجَّة البيضاء ، وعلى الطريقة الواضحة الغرَّاء البيّنة ، ليلها كنهارها ، لا يزيغُ ولا ينحرف عنها إلا هالك ، أصمَّ أُذنيه عن الحقِّ ، وأعمى عينيه عن النور ، فضربت به السُّبل هنا وهناك ، فكان من الهالكين .

لا يمكن أن يجتمع للأمة شمل ، وأن يتوحَّد لها هدف ، وأن تتفق على غاية وطريق ، إلا إذا اتخذت رسول الله ﷺ إمامًا ، واتخذت أصحابه المهديين وخلفاءه الراشدين من بعده نجومًا ، بهم يُقتدى فيُهتدى .

اتباع صراط الله المستقيم :

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (الأنعام:١٥٣) .

صراط الله واحد ، هو الذي يُمكن أن يوحِّد الأمة الإسلامية مهما تعدَّدت ، ومهما تكاثرت ، ومهما ذهبت بها المشارق والمغارب ، فإنها إذا التقت على صراط الله ، وعلى طريق محمد عليه الصلاة والسلام ، اتَّفقت غايتها ومناهجها ، وتوحَّد صفُّها ، واتَّحدت كلمتها .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/٣٢٤) .

(٢) سبق تخريجه صـ ٩٣ .

فإذا تنكَّبت هذا الطريق ، وحادت عن هذا المنهج ، فلا يمكن أن تتفق أبدًا ، ستختلف اختلافًا كثيرًا ، يُشرِّق بعضها ويُغرِّب بعضها ، هذا إلى اليمين وذاك إلى اليسار ، هذا إلى جانب وذاك إلى جانب آخر . . . فلا تلتقي للأمة كلمة ، ولا يجتمع لها صف ، ولا يلتئم لها شمل ، ولا تكون لها قوة ولا كيان مُعتبر .

لا نجاة بغير اتباع هدي رسول الله وأصحابه الراشدين :

الوصية الوحيدة التي يضمن العملُ بها حلَّ الخلاف ، ورأبَ الصدع ، والبرء من كل داء ، هي : أن تتَّبع الأمة هدي رسول الله ﷺ ، وهدي أصحابه الراشدين المهديين من بعده . . . وأن يتركوا مُحدَثات الأمور ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إياكم ومُحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » .

الابتداع في الدين أساس كل بلاء :

ما أحدث الناس من العقائد والأفكار ، وما أحدثوا من العبادات والشرائع ، وما أحدثوا من الآداب والتقاليد ، مما ليس له من دين الله أصل ، ولا في شريعته دليل ، كل هذا يُردُّ ويُرفض ، لأنه بدعة وكل بدعة ضلالة .

لقد شرحنا حديثه عليه الصلاة والسلام : « مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ »[1] ، أي : مردود عليه ومرفوض ، وغير مقبول ولا يُتَّبع . ولا نريد أن نعيد ما قلناه هناك[2] .

الاختلاف في شأن القرآن : مخلوق أو غير مخلوق ؟

عندما اختلف الناس في الدولة العباسية في عصر المأمون ومَن بعده من الخلفاء ، اختلفوا في شأن القرآن : هل القرآن مخلوق أو غير مخلوق؟

وصار المأمون ومَن بعده يمتحنون الناس ويسألونهم : هل القرآن مخلوق أو غير مخلوق؟ فإذا قال المرء : غير مخلوق . عُذِّب وأُوذي . . . لأن المأمون كان على رأي المعتزلة الذين يقولون : إن القرآن مخلوق .

---

(١) سبق تخريجه وشرحه في الدرس الحادي عشر صـ ٩٠ .

(٢) انظر : صـ ٩٠ وما بعدها .

وبقية علماء الأمة يتحرَّجون من هذه الكلمة ويقولون : لا نقول القرآن مخلوق ، إنَّ القرآن كلام الله .

موقف أعرابي من الخليفة المعتصم :

هناك دخل أعرابي على الخليفة المعتصم بعد الخليفة المأمون ، وعلى وزيره الذي كان يمتحن الناس ، قال له الوزير : القرآن مخلوق أم غير مخلوق؟ فقال له الأعرابي : إني أسألك : أهذه المسألة تَحَدَّث فيها رسول الله ﷺ؟ قال : لا . قال : أتكلَّم فيها أبو بكر؟ قال : لا . قال : أتكلَّم فيها عمر؟ قال : لا . قال : أتكلَّم فيها عثمان؟ قال : لا . قال : أتكلَّم فيها علي؟ قال : لا . قال : أكانوا يعلمونها ولكنهم تركوها؟ فإن كانوا فعلوا ذلك فلْيسعنا ما وسعهم ، وإن كانوا يجهلوها أفتأتي أنت يا لُكع ابن لُكع من بعدهم فتدَّعي معرفة أمر جهله رسول الله ﷺ ، وأصحابه : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم [1]؟

هذا المنطق الفطري ، منطق الأعرابي ، هو المنطق السليم . . . الشيء الذي تركه رسول الله ﷺ ، وأعرض عنه هو وخلفاؤه الراشدون من بعده ، ولم يبحثوا فيه ، ولا وجدوا له سبيلاً ولا حاجة ، فلماذا يأتي الناس ويجعلون منه معركة يُمتحن الناس عليها ويُعذّبون في سبيلها ؟

الابتداع بين أمور الدين وأمور الدنيا :

إنَّ ما أُحدث من هذه الأمور ، من بدع العقائد والعبادات والأفكار وما شابه ذلك ، كله يجب أن يُردَّ ، لأنه ليس على أمر رسول الله ﷺ ، وليس على عمل رسول الله ﷺ .

إذا كان الناس لا بد أن يُحدثوا ، ولا بدَّ أن يبتدعوا ، ولا بد أن يخترعوا ، فَلْيخترعوا في أمور دنياهم ، وليبتكروا في أمور معيشتهم ما شاءوا . . . أما أمور الدين فقد حدَّدها ربُّ العالمين في كتابه العزيز ، وحدَّدها رسول رب العالمين ﷺ ،

---

(١) انظر : تاريخ الخلفاء للسيوطي صـ٢٩٦ .

وبيَّنها خلفاؤه الراشدون من بعده . . . فلا حاجة للدين في ابتكار مُبتكر ، ولا اختراع مُخترع .

عليكم بالعهد الأول :

لقد قال عبد الله بن مسعود : إنكم أصبحتم اليوم على الفطرة ، وإنكم ستحدثون ، وسيُحدث لكم ـ أي تبتدعون ويبتدع لكم ـ فعليكم بالعهد الأول[1] . أي : ارجعوا إلى ما كان عليه الرسول وخلفاؤه وصحابته .

هذه الرَّجعة ، أو (الرَّجعيَّة) ، هي المطلوبة من المسلمين . . . أن يعودوا إلى الوراء أربعة عشر قرنًا ، حيث كان رسول الله ﷺ ، وكان أصحابه ، وكان أولئك الغُرُّ الميامين ، فالخير كل الخير في اتباع هؤلاء .

الخير كل الخير في اتِّباع من سَلَف ، والشرُّ كل الشر في ابتداع من خَلَف ، فلنحذر كل مَن ابتدع بعد رسول الله ﷺ ، وأصحابه والقرون الأولى والسلف الصالح . . . ولنستمسك بما كان عليه سلف هذه الأمة . . . « إياكم ومُحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » .

* * *

(١) رواه الدارمي في المقدمة (١٦٩) .